الجرح والرجل

قصة بقلم أمجد توفيق

كانت الشمس تنحدر نحو الغرب .. وتنعكس أشعتها على العشب الاصفر .. ثمة طيور كبيرة تحلق في سماء القرية وقد فرشت أجنحتها لتنساب في الفضاء ..

وفي كوخ ينام بصمت في طرف القريه ، ارسلت الام تنهدة طويلة وهي متكئة على مرفق الباب وصوت غريب يضج في رأسها يوقظ الذكريات النائمة في حضن السنين .. وحين اختفت الشمس في دماء الشفق كان الحزن يتوهج في عينيها وجرح الوحدة في قلبها يكبر ..

في الداخل كانت صورة كبيرة معلقة على هامة الجدار لرجل في عينيه بريق ثقة ورجولة وفي ذقنه اثر جرح ملتئم ..

قال ابنها الصغير وهو ينظر الى الصورة :

ـ متى يعود ؟

فكرت في الحكاية القديمة ثم قالت :

ـ يا ولدي .. عندما رحل الصياد وجبينه ينضح عرقا التصقت زوجته به وامتصت قطرات العرق .. ربت على كتفها وحدق في عينيها . لم يقل شيئا لكنها علمت انه سيعود ..

(وهي تتذكر وعودة الطريق وعبء الرجل الوحيد وخبب الحصان في الارض المجهولة) ..

قالت لطفلها :

ـ سيعود ..

في الحقل المجاور كان هناك رجل يتقدم .. يغيب وجهه بين اوراق الاشجار تارة ويظهر تارة اخرى ..

قال الطفل وهو يشير ناحية الرجل :

ـ ها هو عاد !..

وتقدم خطوتين ..

همست الام وهي لا تكف عن النظر الى جهة الرجل :

ـ كان يقول لن اعود قبل ان اجلو عني غبار السفر ..

التصق الطفل بأمه ..

وتقدم الرجل ، فاوسعت الام الطريق من الباب فدخل الزائر الى الحجرة المفروشة ببسط قديمة ومقاعد من القش ، فجلس الزائر على البساط متربعا ..

قال وهو يخاطب الصغير :

ـ ما اسمك يا ولدي ؟

قال الطفل بحدة وهو متكور في حضن أمه :

ـ أين ابي ؟

ابتسم الزائر ثم قال :

ـ ابوك لن تطول رحلته .. ففي عينيه شوق لا يفتر .. أريد أن أراه ..

أجاب الزائر وقد اختفت البسمة من شفتيه :

ـ يريدك ان تكبر ..

ارتعشت تعابير وجه الطفل فعلم الزائر انه سيبكي ..

وغاصت اصابع الام في شعره الطويل .. فدفن الطفل وجهه في صدر أمه واجهش بالبكاء ..

فغمر الحزن وجه الزائر واستقرت نظراته على الصورة المعلقة على الجدار ثم عادت فاستقرت في عيني الام فقالت :

ـ ماذا يقول ؟..

أجاب الزائر وهو ينظر الى اصابعه المشبكة :

ـ كان غاضبا ولا يتحدث الا قليلا .. عفر جبهته بالتراب ثم قال : مخاض المدينة طويل ..

ـ أعرف انه لا يتكلم كثيرا .. ويوم رحل .. انسل في جنح الظلام وكنت يقظة لكني لم أرد أن أفسد عليه رحلته ..

تأمل الزائر وجه الطفل الذي جفت عليه الدموع وسقط على ساعد أمه ..

قالت الام :

ـ انه نائم ..

ـ كانت عينا والده تتقدان عندما قال : قبل الطفل في الخدين وذكر أمه ان تدثره جيدا ..

قالت الام وعيناها تحتضنان الصورة :

ـ كان ابوه يردد دائما .. حين اجتاح التتار مدينة بغداد ولونوا دجلة بحبر الكلمات عزم الشعب على الانتقام . وفي كل ليلة يختفي أحد الجنود التتار .. فيرتعد الجنود الآخرون ويضربون رقبة كل طفل تفوح منه رائحة بسمة ..

أطرق الزائر صامتا .. ومرت لحظات صمت طويلة .. بعدها نهض الزائر وقال :

ـ هل تريدين شيئا ؟

لم تجب الام ، فودعها الرجل وقبّل الطفل وخرج لاحقته نظرات الام .. حتى اختفى بين الادغال .. وفي الفضاء كانت اذيال السحابات تحترق ويتعالى دخانها ويخيم ظلاما ..

نهضت الام وأنارت المصباح .. فبدل النور وجه الطفل في اللحظة التي وضعته على السرير ودثرته جيدا .. حينها شعرت ان الخدر يسري في اوصالها .. واندست في الفراش واحتضنت طفلها .. نظرت الى الصورة فشعرت ان زوجها يبتسم ، فأطبقت عينيها كأنها تخشى ان تفقد حلما لذيذا .. وفي الخارج كانت الكلاب تعوي بصوت ممطوط ..

الموصل

امجد توفيق